الباب التاسع

في ذكر ديانات العرب قبل الإسلام وعلومهم

اعلم يا أخي، ثبّتني الله وإياك لتوحيده أن ديانات العرب كانت متباينة مختلفة؛ فصنف منهم قالوا بالدهر المفني فعطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا كما حكى الله عنهم {ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: ٢٤].

وبيان ما قالوه والرد عليهم مذكور في كتب أهل العلم.

وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث وقد ردَّه الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: {أو لم ير الإنسان إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلًا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم* قل يحييها الذي انشأها ألو مرة وهو بكل خلق عليم}.

وقد بينا سبب نزول هذه الآية ووجه الدلالة منها في التوضيح والتبيين لمسائل العقد الثمين.

وصنف عبد الأصنام وكان أول من نصب الأصنام للعرب عمرو بن ربيعة، وهو لحي أبو خزاعة كما بيَّنا ذلك في الكتاب المذكور فكان لكلب ود وهو على تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال عليه حلتان متزراجلة مرتديًا بأخرى وعليه سيف قد تقلَّده وقد تنكب قوسًا، وكان لهذيل سواع وفي ذلك يقول رجل من العرب:

تراهم حول قبيلتهم عكوفًا كما عكفت هذيل على سواع

وكان لمذحج يغوث، وكان لهمدان يعوق فكان بقرية يقال لها حيوان فعبده همدان ومن والاها من اليمن، وكان لحمير نسر فكان بموضع من أرض سبأ يقال لها: بلخع يعبده حمير ومن والاها ولم يزالوا على ذلك حتى هودهم ذو نواس.

وهذه الأصنام الخمسة التي كانت في قوم نوح عليه السلام وقد أوضحنا كيفية نقلها إلى العرب في الكتاب المتقدم ذكره.

وكانت لقريش أصنامٌ في جوف الكعبة وحولها أعظمها عندهم هُبل وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أو من نصَّبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان من أصنامهم إساف ونايله.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن إسافًا رجل من جُرهم يقال له: إساف بن يعلى، ونايلة بنت زيد بن جرهم وكان يتعشقها في أرض اليمن فأقبلا حجاجًا فدخلا البيت فوجدا عفلة من الناس ففجر بها في البيت فمسخا حجرين

فأخرجوهما فوضعوهما ليتعضن بهما الناس فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام عبدتهما قريش وخزاعة ومن حج من العرب.

وكان من أصنامهم -أي العرب- اللات والعزى ومنات وذو الخلصة وذو الكفين، وذو الشرى وبهم وسعير والفلس وعمرانس وغير ذلك مما لا يتسع هذا الموضع لتفصيل بعضه.

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفشا الإسلام وانتشر أزيلت هذه الأصنام كلها.

وصنف منهم كان يميل على اليهودية.

وصنف يميل إلى النصرانية.

وصنف يميل إلى الصابئية ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجّمين في الكواكب السبعة السيارة ويعتقدون أنها فعّالة بأنفسها ويقولون: مطرنا بنوء الكوكب الفلاني

وصنف عبدوا الملائكة.

وصنف عبدوا الجن، وكان لهم أحكام يتدينون بها جاءة الشريعة الإسلامية بإبقاء بعضها وإبطال بعض فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار ويغتسلون من الجنابة ويديمون

المضمضمة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء، وتقليم الأظافر ونتف الإبط ولا ينكحون الأمهات ولا البنات فجاء الإسلام بإبقاء. ذلك على وجه مخصوص.

وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه ضيزن ويقطعون يد السارق اليمنى وكانوا يجمعون بني الأختين فجاءت الشريعة بمنع ذلك.

وكانوا يعدون الظهار طلاقًا وتعتد المرأة عن الوفاة بحول، وكانوا إذا ألبس عليهم أمرد ردُّوه إلى كهنتهم، وكانوا يعولون على عيافة الطير وزجره في حركاتهم وقصدهم وهوان يعتبر عند قصده بما يراه من الطير تارة باسمه وتارة بطيرانه يمينًا أو شمالًا وتارة بصوته ومقدار ما يصوت وتارة بمسقطه الذي يسقط فيه وجاءت الشريعة بإبطال ذلك، وأما علومهم فمنها علم الأنساب والعلم بأنواء الكواكب والتاريخ وتعبير الرؤيا، وكان عندهم علم القيافة وأكثر ما كانْ في بني مدلج، وكان لهم معرفة بقص أثر الماشي حتى يعلمون إلى أين ذهب وهو ضرب من القيافة إلى غير ذلك من العلوم التي درس أكثرها.